الموارنة والكتاب
من القرن الخامس عشر حتّى اليوم

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ (*)

يهدف هذا البحث، ذو الطابع التاريخيّ، إلى دراسة علاقة الموارنة بالكتاب، الوسيلة الثقافيّة الأساسيّة، وذلك منذ ما قبل تأسيس المدرسة المارونيّة وإنشاء مطبعة قزحيّا الأولى التي فيها طُبع كتاب المزامير بلغة عربيّة وبحرف سريانيّ (١٥٩٤ و١٦١٠). ويتطرّق هذا البحث إلى تطوّر حركة طباعة الكتاب ونشره على يد الموارنة أثناء الفترة التي تمتدّ من تأسيس المدرسة المارونيّة حتّى المجمع اللبنانيّ (١٧٣٦)، ثمّ يحلّل ما قرّره المجمع في شأن تأليف الكتاب ونشره، ويعرض حركة النشر أثناء القرن التاسع عشر ومن ثمّ يتناول وضعيّتها في القرن العشرين.

١ - قبل تأسيس المدرسة المارونيّة

يقول ج. دنديني (١٥٥٤-١٦٣٤) رئيس السفارة الرومانيّة إلى الموارنة في مذكّراته عمّا رآه وتحقّقه عند الموارنة: «إنّ الموارنة لا يستخدمون المطابع لطبع الكتاب ونشره بكثرة، ووضعهم هو وضع باقي المشارقة». «فالموارنة يخطّون كتبهم باليد، رغم أنّ هذه الطريقة لا تخلو من الخطر، لأنّ النسّاخ يستطيعون أن يضيفوا أو أن يحذفوا ما يطيب لهم. لكنّ النسخ يتطلّب جهدًا ووقتًا طويلين، وبما أنّ عدد النسّاخ عندهم هو

(*) رئيس تحرير المشرق.

قليل فلا خوف من التحريف، إذ من الممكن معالجة ذلك بسهولة»[1].

هذه الملاحظات يؤكّدها البطريرك إسطفان الدويهي (١٦٣٠-١٧٠٤) في كتابَيه **تاريخ الأزمنة وتاريخ الطائفة المارونيّة**. فالبطريرك المؤرِّخ لم يكتفِ بعرض الأحداث ذات الطابع الدينيّ والسياسيّ، بل إنّه نقل إلينا بعض المعلومات ذات الطابع الثقافيّ، وعلى الأخصّ تلك المتعلّقة بنسخ الكتب وأسماء بعض الذين اشتهروا في هذا المجال قبل دخول آلة الطباعة جبل لبنان. ففي كتاب **تاريخ الأزمنة** يذكر المؤلّف أسماء عدد من النسّاخ: فالشمّاس سابا بن سليمان بن الخوري جرجس من قنات، قام بتحرير الإنجيل بخطّ اصطرنغالي على ورق سنة ١٣٣٢م، والأسقف يعقوب مطران إهدن نسخ الإنجيل هو أيضًا سنة ١٣٦٦م وقد كان محفوظًا أيّام البطريرك في قنّوبين، والقسّ يوسف البقوفاني نسخ كتاب المزامير سنة ١٥٩١ (قبل ثلاثة أعوام من طباعته في قزحيّا)، والخوري الحبيس جرجس الهدنانيّ، «ذي الخطّ الجميل وناسخ الكتب الكنسيّة». وذُكِر أيضًا الخوري حنّا بن الزطيميّة من ترتج (وقد هاجر إلى جزيرة قبرص)، «الذي كان للطائفة سندًا متينًا في نسخ الكتب البيعيّة»، وولداه القسّ يوسف والشمّاس إلياس اللذان اشتهرا بنسخ الكتب الكنسيّة[2]. فالنسّاخ، نظرًا لأهمّيّتهم ولحاجة الكنيسة إليهم، لاقوا اهتمامًا خاصًّا في **تاريخ الأزمنة**، إذ إنّ الواحد منهم يُعدّ سندًا للطائفة وعاملًا أساسيًّا في الحفاظ على التراث والأمانة.

النسّاخ «اليعاقبة» والموارنة في نهاية القرن الخامس عشر

ويُستدلّ على قلّة النسّاخ عند الموارنة من خلال رواية البطريرك الدويهي نفسه في **تاريخ الأزمنة وتاريخ الطائفة المارونيّة** عن نشاط النسّاخ «اليعاقبة» في القرن الخامس عشر، ونشاطهم في مجال نشر الكتب الدينيّة المختلفة، والعمل على نسخ الكتب انطلاقًا من قرية بقوفا وبعض قرى

(١) Cf. Gemayel N., *Les échanges culturels entre les Maronites et l'Europe*, pp. 640-641; cf. Dandini, *Voyage au Mont-Liban*, p. 95-96.

(٢) راجع: **تاريخ الأزمنة**، نشرة فهد، ص ٣٠١، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٦٦، ٣٨٠.

شمال لبنان وقرية حردين في بلاد البترون. فالمعروف أنّ اليعاقبة كانوا في جونيه وفق روايات الشريف الإدريسي[٣]، ولكنّهم، وفق روايات مؤلّف تاريخ الأزمنة دخلوا لبنان حوالى منتصف القرن الخامس عشر(؟) عن طريق الشمال، حيث تحوّل أحد المقدَّمين، وهو عبد المنعم، إلى الإيمان اليعقوبيّ؛ واستوطنوا بعض القرى مثل بقوفا وقرية موسى والجبّة وحصرون وحدشيت. ويُفهم من رواية الدويهي ومن شهادة دنديني أنّ اليعاقبة دخلوا حاملين الكتب والعلم والثقافة وأصول النسخ، وأنّ ديُستوروس بن ضو، أسقف القدس اليعقوبيّ، جاء حاملًا كتابًا مزيّنًا قدّمه إلى عبد المنعم. وقد برع من النسّاخ اليعاقبة الخوري حنّا الذي كان حسن الخطّ في السريانيّ «وصار يُغيِّر في الكتب المقدّسة ويزرع بها الزؤان كقول ابن القلاعي»[٤]. وتستدلّ من المخطوطات الطقسيّة السريانيّة المارونيّة العائدة إلى القرن الخامس عشر أنّ تأثيرًا مباشرًا حصل في النصوص، بسبب انتشار الكتب الطقسيّة اليعقوبيّة الكثيرة الشبه بالكتب الطقسيّة المارونيّة التي تُكتب بالحرف السريانيّ والخطّ نفسه المعروف باليعقوبيّ. ولنا من هذا دليل على أقدم مخطوط للقدّاس الماروني المحفوظ في المكتبة الوطنيّة بباريس وهو من سنة ١٤٥٤م والذي يذكر أسماء نسّاخ يعاقبة معروفين[٥]. ويؤكّد نشاط اليعاقبة وتأثير نسّاخهم في الكتب الخاصّة بالموارنة تحوُّل قرية حردين إلى مركز يعقوبيّ تُنسخ فيه الكتب والمؤلّفات على اختلافها، بعد أن طُرِد اليعاقبة من منطقة الشمال بأسرها.

إنّ معالجة موضوع التأثير اليعقوبيّ اللاهوتيّ وقلّة النسّاخ عند الموارنة كان في رأس اهتمامات المطران ابن القلاعي الذي ألّف الكثير. ونسخ العديد من الكتب، واتّبع نوعًا من المدرسة التي تعتمد السماع وتقضي بمناهضة اليعاقبة وتعليمهم من خلال زجليّاته المعروفة. أمّا فرا غريغون فقد ألّف كتابًا في تفسير الإنجيل، كما أنّه استبق المدرسة

---

(٣) راجع: فلسطين وسوريا للإدريسي، ص ١٧٠ (نصّ عربيّ)، نشرة غيلوماسية.
(٤) راجع: تاريخ الأزمنة، ص ٣٦٢ وأيضًا ٣٥٣-٣٥٤، ٣٥٨، ٣٩٥-٣٩٧.
(٥) راجع: زجليّات ابن القلاعي، بطرس الجميّل، ص ١٨ .

المارونيّة فأرسل ثلاثة شبّان موارنة إلى روما ليدرسوا علم اللاهوت ويكونوا رهبانًا في جمعيّة الفرنسيسكانيّة، ثمّ ليعودوا مدافعين عن الإيمان المستقيم لأنّه «يا بطرس إذا رأيت العلم صادرًا من قاعدة رومية فاعلم أنّ الخلاص قرب من شعبك».

أمّا المبعوث البابويّ جيوفاني باتيشطا إليانو فإنّه عمد إلى إحراق ما وقعت عليه يداه من كتب ومخطوطات طقسيّة وبيعيّة، يشوبها التحريف في الرعايا والأديار والمحابس المارونيّة، تقوده في ذلك إرادة في إبعاد الشبهات والتأثير «اليعقوبيّ» عن إيمان الموارنة، ورغبته في ربطهم بإيمان الكنيسة الرومانيّة قلبًا وقالبًا. فهو كان تحقّق، كما يقول الأب شيخو، «أنّ كثيرًا من كتب الموارنة الدينيّة والكنسيّة قد اندسّت فيها تعاليم مخالفة لمعتقدات الكنيسة الرومانيّة أوقف عليها غبطة السيّد البطريرك والمطارنة فوافقوه على فسادها ناسبين ذلك إلى نسّاخها من ذوي البدعة اليعقوبيّة أو من جهّال الطائفة»[٦]. واللافت أنّ إليانو كان يضع اليد على الكتب الفاسدة أو يبتاعها من أصحابها فيحرقها ويعود بنسخة من تلك الكتب بعد طبعها مصحّحة في روما. وهو اقترح إثر سفارته الأولى في تقريره الذي رفعه إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٨، أنّه «ينبغي أن تُنشأ في رومية مطبعة تُنشر فيها الكتب العربيّة والسريانيّة التي يحتاج إليها الموارنة في كنائسهم، حتّى تقوم هذه المطبوعات المنقّحة مقام الكتب الخطّيّة التي يستعملونها والتي سرت إليها بعض الأضاليل فيحرقونها لاستغنائهم عنها بما هو أفضل». والواضح أنّ إليانو رأى أنّ أمسّ حاجة ينبغي التفرّغ لها قبل سفره الثاني إلى جبل لبنان هي الاهتمام بطبع بعض التآليف في العربيّة ونشرها في لبنان. غير أنّ طبع الكتب كان يتطلّب تجهيز مطبعة وإعداد حروف جديدة عربيّة وسريانيّة. وقد اهتمّ إليانو بإعداد هذه المطبعة التي كانت في عهدة الطبّاع لوتكا الذي طبع فيها التعليم المسيحيّ الشهير لمؤلّفه بطرس كنيزيوس معرّبًا وتمّ طبعه بالحرف الكرشونيّ في

(٦) راجع: الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة، للريس شيخو، ص ٥٠.

نيسان ١٥٨٠. وقد حمل إليانو معه في سفرته الثانية مجموعة كبيرة من الموادّ الكنسيّة بينها قوانين المجمع التريدانتينيّ الإيمانيّة والتعليم المسيحيّ المطبوعة في روما.

٢ - الكتاب والموارنة بعد تأسيس المدرسة المارونيّة (حتّى المجمع اللبنانيّ)

يقول الأب بولس صفير في مقدّمته لـ دليل المخطوطات والكتب التي عُرِضت لمناسبة الذكرى المئويّة الرابعة لتأسيس المدرسة المارونيّة (١٥٨٤-١٩٨٤): «إنّ المدرسة المارونيّة في روما تشكّل منعطفًا تاريخيًّا في حياة الكنيسة المارونيّة. منها انطلقت تلك الشرارة الأولى لمشعل الحضارة والنهضة الثقافيّة التي قاد مسيرتها الشاقّة تلامذة المدرسة المارونيّة في لبنان والشرق، وإليها يعود الفضل في انفتاح الغرب الأوروبّيّ على كنوز الشرق وبقيّة الأديان والمذاهب». أمّا تلامذة هذه المدرسة فإنّهم «ممّن عرّف الغرب المسيحيّ بحضارة الشرق. فنقلوها إليه، بواسطة ترجماتهم القيّمة وتعليقاتهم وشروحاتهم وتفاسيرهم».

وما تجدر الإشارة إليه هنا، في إطار تقييم دور المدرسة المارونيّة الثقافيّ هذا، هو ما تحقّق، وإن بصورة بدائيّة، على صعيد حركة تأليف الكتاب وطبعه ونشره وتوزيعه مجّانًا كوسيلة ثقافيّة رئيسيّة. فمطبعة قزحيّا الأولى (١٥٨٤) كانت، بشكل مباشر أو غير مباشر، من ثمار تأسيس مدرسة روما حتّى إنّ بعض الباحثين يشيرون إلى أنّ منشئ المطبعة هو من تلامذة روما[٧]. لكنّ مطبعة قزحيّا لم تَدُم طويلًا وبقيت حركة الطباعة المارونيّة مرتبطة جغرافيًّا بعاصمة الكثلكة، إذ إنّ نهاية القرن السادس عشر والسابع عشر شهدا تأسيس خمس مطابع في إيطاليا وهي: مطبعة الميديسيس سنة ١٥٨٩ ومطبعة يعقوب قمر (Luna) سنة ١٥٩٥، ومطبعة لوتكا سنة ١٥٨٠، ومطبعة المدرسة المارونيّة سنة ١٦١٤، ومطبعة انتشار

(٧) راجع: N. Gemayel, *op.cit.* pp. 641-642.

الإيمان للغات المتعدّدة سنة ١٦٢٦، وقد اضطلعت الأخيرة بدور كبير في طباعة الكتب بالعربيّة والسريانيّة وهي مؤلّفات مُعَدَّة للطوائف الشرقيّة ومنها الموارنة. فهدف هذه المطبعة كان طباعة الكتب اللغويّة المختلفة كالمعاجم ومبادئ اللغة والكتب الليتورجيّة وقوانين الإيمان والتعليم المسيحيّ والكلندر الغريغوريّ ومقرّرات المجمع التريدانتينيّ (١٥٦٢)، وقانون الإيمان ومنه نسخة في مكتبة الڤاتيكان. في هذا الوقت، نشطت حركة النسخ في جبل لبنان عند الموارنة، نتيجة حتميّة لازدياد عدد المدارس وتعليم القراءة والكتابة: فزخرت المكتبات بالمخطوطات التي نسخت في النصف الثاني من القرن السادس عشر وفي السابع عشر ومصدرها جبل لبنان. فعلى سبيل المثال نذكر مخطوط مجموع الكلمات اليونانيّة الدخيلة على السريانيّة لابن إسحق (١٥٥٧)، وكتاب الرسائل الذي نسخ في قزحيّا (سنة ١٥٨٢)، ومعجم ابن بهلول (١٥٩٦-١٦٠٦)، الأناجيل بحسب السنة الطقسيّة (١٦٨٧)، كتاب الشرطونيّة لكلّ الدرجات الكهنوتيّة المقدّسة (١٦٥١) للمطران لوقا القرباصي (+ ١٦٧٣)، مقطوف الأسرار النصرانيّة (١٦٧٢) للمطران يوحنّا الحصرونيّ، ومجموعة كبيرة من مؤلّفات السيّد البطريرك إسطفانوس الدويهي[٨].

لقد أشرنا إلى موضوع ارتباط طباعة الكتاب ونشره بروما والمدرسة المارونيّة وتلامذتها وبالإرساليّات. فالواضح من قراءة المصادر التاريخيّة قراءة أوّليّة أنّ روما أرادت أن تبقى المصدر الأساسيّ في نشر الكتاب المعدّ للموارنة والشرقيّين لتستطيع مراقبة مضمون هذه المؤلّفات وربطها عضويًّا بمحتوى قانون الإيمان الرومانيّ. فالمبعوث البابويّ إلياتر كان شدّد على طبع الكتب الدينيّة منقّحة في روما لئلّا «تبقى جراثيم البدع منبثّة بين العموم معرّضًا لآفات الضلال رغمًا عن استقامة الموارنة وحسن نيّتهم». ويقول الأب شيخو في كتاب الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة إنّ بعض الموارنة باشروا في روميّة طبع رتبة القدّاس والنواقيس الجارية في

(٨) راجع: B. Aggoula, «Le livre libanais de 1585 à 1900» in *Le livre et le Liban* p. 311, n° 4.

كناشهم وذلك في السنة ١٥٨٤، وإذ لم يكن في رومية مَن يعرف اللغة السريانيّة اختاروا بين النسخ الخطّيّة التي استندوا إليها نسخة فاسدة تشتمل على عدّة نوافير منقولة عن اليعاقبة كنافور بر شوشان ومار ماروتا مع ذكر المبتدعين في عداد القدّيسين المطلوبة شفاعتهم ولا سيّما برصوما أحد زعماء البدعة اليعقوبيّة. وفي مكتبة كمبردج بين مخطوطاتها السريانيّة (Wright II, 1060) نسخة من النوافير المارونيّة بينها طقس مار برصوما. وربّما كان شيخو يشير هنا إلى المطران موسى بن سعاده العنيسي العاقوريّ، من أوّل تلامذة روما، الذي عني بطبع القدّاس المارونيّ في مطبعة الميديسيس سنة ١٥٩٤ مع جرجس عميره[٩].

أمّا الكتب المارونيّة الطقسيّة وغيرها والمؤلّفات المعدّة للطائفة المارونيّة، التي طبعت في روما أثناء القرن السابع عشر وقبله تحت إشراف تلامذة روما ورؤسائهم، فإنّنا نورد أهمّها في الجدول التالي[١٠]:

كتاب الجنّاز المارونيّ (١٥٨٥).
صلوات الكنيسة المارونيّة السبع بالكرشونيّ (١٥٨٤).
الأناجيل الأربعة (مطبعة الميديسيس)، ١٥٩٠.
مبادئ القراءة (مطبعة الميديسيس)، ١٥٩٢.
قواعد العربيّة للسنهجي (مطبعة الميديسيس)، ١٥٩٢.
كتاب الجغرافية للإدريسي (مطبعة الميديسيس)، نصّ عربيّ مع ترجمة لاتينيّة بقلم جبرائيل الصهيونيّ ويوحنّا الحصرونيّ سنة ١٦١٩ (مطبعة ١٦١٩).
كتاب الطبّ لابن سينا (مطبعة الميديسيس)، ١٥٩٣.
كتاب القدّاس للأمّة المارونيّة، ١٥٩٢ و١٥٩٤، ١٦٠٤.
مختصر التواريخ المقدّسة لبارونيوس (عربيّ)، ١٦٥٣.
ترجمة الكتاب المقدّس العربيّة، ١٦٣٣.

---

(٩) راجع: المرجع السابق، لويس شيخو، ص ٥١.
(١٠) N. Gemayel, *op.cit.*, pp. 649-650.

مقالة في تجسّد الكلمة لبوناونتورا (عربيّ).
مقالة في الاعتراف والتناول، فحص الضمير لبوناونتورا (عربيّ).
مبادئ الإيمان الكاثوليكيّ والرومانيّ (عربيّ).
حياة بعض القدّيسين لبوناونتورا (عربيّ).
مقالة في الأسرار (عربيّ).
الاقتداء بالمسيح (عربيّ).
حياة القدّيس سمعان العموديّ لأورسين دو بورج (عربيّ).
حياة القدّيس أنطونيوس البادواني (عربيّ).
العهد الجديد، (عربيّ)، ١٥٩٠.
الشحيمة المارونيّة، ١٦٥٦ و١٦٦٦ (سريانيّ).
مبادئ اللغة السريانيّة-لإبراهيم الحاقلاني، ١٦٢٨.
مجمع نيقيه، لإبراهيم الحاقلاني، باريس، ١٦٤٥.
غراماطيق (سريانيّ) ليوسف العاقوري، روما، ١٦٤٧.
كتاب المزامير لجبرائيل الصهيونيّ وفيكتور شلق، ١٦١٤ و١٦١٩.
قواعد القدّيس باسيليوس، بالعربيّة.
العقيدة المسيحيّة ومقالة في الطبيعتَين، للكاردينال بللوغا.
كتاب السواعي بيمّة البطريرك سركيس الرزّي سنة ١٥٨٤ في الڤاتيكان.

هذه الكتب وغيرها كان يحملها المرسلون وتلامذة روما معهم إلى جبل لبنان ليوزّعوها على الذين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا يفيدون منها بشكل غير مباشر في الوعظ وتعليم القراءة والكتابة في المدارس المنشأة حديثًا. وهذا ما عزّز في أثناء القرن السابع عشر مهنة النسخ فأصبح هناك طبقة من الكتّاب والنسّاخين، على الأخصّ في صفوف الإكليروس، كالرهبان والكهنة وحتّى الشمامسة[١١]. وقد حاول ميخائيل المطوشي وإبراهيم الغزيري إعادة إحياء مطبعة قزحيّا بطلب من البطريرك

(١١) هذا ما يتّضح عند مراجعة لائحة المخطوطات التي نُشرت في الكليك لمناسبة الذكرى المئويّة الرابعة لتأسيس المدرسة المارونيّة في روما ١٥٨٤-١٩٨٤. راجع: دليل المخطوطات والكتب الذي نشر في المناسبة.

إسطفان الدويهي، لكن مسعاهما باء بالفشل. وكذلك المسعى الذي قام به بطرس مبارك في مطلع القرن الثامن عشر[١٢].

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو الدور الكبير الذي اضطلع به تلامذة روما الموارنة في إنشاء المدارس ومنها مدرسة سيدة حوقا (١٦٢٥) وغيرها من المدارس أثناء القرن السابع عشر، استجابة لطلب البطاركة والأساقفة، يساعدهم في ذلك المرسلون الأوروبيّون. لكنّ عددًا من خرّيجي المدرسة المارونيّة، ومنهم عدد من المبرزين في العلم والمبدعين، لم يعودوا إلى جبل لبنان للمشاركة في النهضة الثقافيّة فبقوا في روما والعواصم الأوروبيّة، يعلّمون ويكتبون، يترجمون ويؤلّفون وينشرون الكتب في ميادين العلوم الدينيّة والمدنيّة كافّة. هذا الوضع دفع البطاركة وحتّى المجمع اللبنانيّ، إلى المطالبة بعودة الخرّيجين إلى الكنيسة للمشاركة في تحمّل مختلف المسؤوليّات الثقافيّة والروحيّة، وعدم بقائهم في روما أو في العواصم الأوروبيّة. صحيح أنّ بعض التلامذة الموارنة حظي بلقب «عالم مارونيّ» نظرًا لنبوغهم، ولما قاموا به من أعمال مهمّة على صعيد الترجمة كوضع الكتاب المقدّس المتعدّد اللغات، (Bible Polyglotte)، وجمع المخطوطات ونشرها. لكن نداءات البطاركة – وقد تجلّى ذلك بوضوح في المجمع اللبنانيّ – كانت الدليل على أنّ الكنيسة بحاجة ماسّة إلى الجميع وبالأخصّ إلى أولئك المبرزين من أبنائها.

وإذا ما استثنينا الحركة الإبداعيّة التي نشأت أثناء النصف الثاني من القرن السابع عشر على يد البطريرك إسطفان الدويهي ومدرسته في جبل لبنان، فإنّ حركة التأليف والطباعة والنشر «المارونيّة» كانت مرتبطة بروما عاصمة الكثلكة وبالعواصم الأوروبيّة. ففي نهاية القرن السادس عشر، قامت حركة تبادل في الكتب بين روما وجبل لبنان. إذ كانت المخطوطات البيعيّة تنتقل إلى روما حيث كان يتمّ فحصها، ثمّ تُطبع منقّحة لتعود بأعداد

(١٢) N. Gemayel, *op.cit.*, pp. 652-653.

وفيرة إلى بلاد الموارنة. لكنّ تلك المخطوطات لم تكن تأخذ شكلًا جديدًا وحسب، بل مضمونًا جديدًا، كما حدث لـ كتاب القدّاس الذي طُبع منقّحًا في روما وقد أوقف البطريرك توزيعه لمدّة ستين لأنّه كان يشوّه مضمون القدّاس المارونيّ. لكنّ دنديني أقنع البطريرك بتوزيع الكتاب، مقابل إعلان أرثوذكسيّة إيمان الموارنة جهارًا في روما.

أمّا أهمّ المؤلّفين التي اشتهروا في هذا القرن، وقد ارتبطت أسماؤهم بعناوين مؤلّفات قيّمة في مختلف ميادين العلوم، فهم على التوالي:

١ - يوسف جرجس العسكري.
٢ - بطرس ديبي.
٣ - سركيس المجري.
٤ - إبرهيم الحاقلاني (+ ١٦٦٣).
٥ - يوحنّا الحصرونيّ (+ ١٦٣٢).
٦ - جبرائيل الصهيونيّ (+ ١٦٤٨).
٧ - جرجس عميره (+ ١٦٤٤).
٨ - يوحنّا المعمدان الحصرونيّ.
٩ - إسحق الشدراويّ (+ ١٦٢٩).
١٠ - سركيس الرزّي (+ ١٦٣٨).
١١ - فيكتور شلق (+ ١٦٣٥) مؤسّس مدرسة رافنا.
١٢ - ديونيسيوس الحاقلاني.
١٣ - فوستوس نيرون (+ ١٧٢١).
١٤ - يوحنّا متّى نيرون.
١٥ - موسى العنيسي (+ ١٦١٤).
١٦ - بطرس المطوشي (+ ١٦٢٥).
١٧ - إسطفان الدويهي.
١٨ - ميخائيل الحصرونيّ (+ ١٦٦٩).

١٩- عبد المسيح الحدثيّ.
٢٠- يوسف الحصرونيّ.
٢١- لوقا القرباصي (+ ١٦٧٣).
٢٢- وهبه الهدناني.
٢٣- عبدالله الشبابي.
٢٤- يوسف الحلبيّ (+ ١٧٢٥)
٢٥- الشدياق يوسف (+ ١٧٢٥).
٢٦- أنطونيوس الصهيونيّ.

٣ - الكتاب في المجمع اللبنانيّ (١٧٣٦) وبعده

عندما عُقِد المجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦، كانت المطابع الشرقيّة قد نمت في روما والعواصم الأوروبيّة وأصبح الكتاب المطبوع بالعربيّة والسريانيّة عاملًا أساسيًّا في نشر الثقافة. ولا بدّ من الإشارة قبل عرض موقف المجمع اللبنانيّ من موضوع الكتاب وأهمّيّته، إلى حدثين بارزين في موضوع طباعة الكتاب: ١ - بعد تجربة قزحيّا سنة ١٦١٠، انتظر الشرق (المسيحيّ) حوالى القرن لكي يهتمّ بإنشاء المطابع الخاصّة به، وقد كانت مطبعة حلب للروم الأرثوذكس الأولى التي باشرت طباعة الكتب الدينيّة والأدبيّة سنة ١٧٠٦ (؟)، فصدر عنها: كتاب المزامير (١٧٠٦)، وكتاب الإنجيل (١٧٠٦)، والمُنتَخب من مقالات يوحنّا فم الذهب (١٧٠٧)، وكتاب النبوات (١٧٠٨)، وكتاب صخرة الشكّ وهو كتاب ينفي بعض العقائد التي تقول بها الكنيسة الرومانيّة (١٧٢١). ٢ - سنة ١٨٣٣-١٨٣٤، بدأت مطبعة الشوير، بإدارة عبدالله زاخر، بطباعة الكتب، فصدر عنها: كتاب ميزان الزمان، ترجمة الأب فروماج (١٧٣٤)، وكتاب المزامير (١٧٣٥ وما بعدها)، وكتاب تأمّلات روحيّة (١٧٣٦).

إنعقد المجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦ إثر دخول آلة الطباعة ثانية الشرق المسيحيّ، ممهّدًا بذلك إلى نشر الكتاب بأعداد وفيرة، على أيدي أبناء

البلاد. أمّا موقف المجمع اللبنانيّ فجاء في هذا المجال مميّزًا: إنّه أفرد في القسم الأوّل - الباب الأوّل (قوانين ٣١-٥٣) عدّة صفحات للحديث عن دور الكتاب وشروط استعماله. فاهتمامات المجمع بتأليف الكتاب الأدبيّ والدينيّ وطبعه أو نسخه مرتبطة حكمًا باهتمامات المجتمعين تربويًّا وثقافيًّا ودينيًّا وبالأخصّ الإصلاح الدينيّ. ومن الممكن استخراج بعض النقاط المتعلّقة بوضعيّة الكتاب ونشره كما يراها المجمع:

أ - إنّ الفصل الثالث ورد في الباب الأوّل المتعلّق بسلطان الكنيسة التعليميّ، قبل الفصل المتعلّق بإنشاء المدارس ومنهج الدروس وتشجيعها. والواضح أنّ المجمع أراد من ناحية، «تنظيم» وضعيّة الكتاب من تأليفه إلى طبعه أو نسخه، بحيث أوكل إلى السيِّد البطريرك والأساقفة أو نوّابهم مهمّة السماح «بنشر أيّ كتاب أو رسالة في فنّ أو معنى، نظمًا كان أو نثرًا أو تاريخًا». والهدف من هذا «التنظيم» هو منع الكتب التي تشتمل «على بدعة أو فطنة تعليم كاذب...» (٣١ب). فالسلطان الكنسيّ الرومانيّ بمراقبة الكتب انتقل هنا من السلطات الرومانيّة إلى الكنيسة المحلّيّة التي عليها، وهي تدخل في إطار حركة التجديد والإصلاح، أن تأخذ على عاتقها مهمّة مراقبة مضمون الكتاب وتوجيهه. وعلى السلطات أن تمنع أيضًا الكتب التي هي مثار شكّ، مثل كتب المبتدعة والعرّافين والسَحَرة.

ب- يتعهّد آباء المجمع بنشر الكتب التي تعود بالفائدة على أبناء الكنيسة، وهو يحدّد المجالات التي ستُؤلَّف فيها الكتب وتُنشر، إذ الحاجة ماسّة إلى: ١ - كتاب في الناموس القانونيّ الدينيّ والمدنيّ يتماشى مع عادة الشرقيّين وتسوية الدعاوى وفصلها بمقتضى كلا الناموسين. ٢ - كتاب في قواعد اللغة السريانيّة وآخر في قواعد اللغة العربيّة للمدارس الابتدائيّة. ٣ - كتاب في المنطق والفلسفة. ٤ - كتاب في اللاهوت الجدليّ مع مختصر لتاريخ الكنيسة. ويتعهّد البطريرك بنشر هذه الكتب على نفقته وتوزيعها بسعر معتدل إن لم تتمّ طباعتها في روما.

ج - يدعو المجمع إلى نشر الكتب البيعيّة والدينيّة في مجموع واحد

وتوزيعها بأعداد وفيرة، وطبعها برعاية البطريرك والأساقفة المحلّيّين.

د - في الفصل المتعلّق بالمدارس، يدعو المجمع إلى توسيع حلقة التعليم لتشمل العدد الأكبر من أبناء الكنيسة، وإلى اعتماد برنامج تدريس يتطلّب تأليف الكثير من الكتب ويفترض بالتالي طبعها وتوزيعها على مختلف القرى والمناطق. فبذلك يكون المجمع قد دعا إلى تشجيع الكتابة والتأليف ومهنة النسخ - التي كانت قد نمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر - خاصّة وأنّ الطباعة لم تكن قد ازدهرت بالشكل الكافي الذي يلبّي حاجات الجميع.

هـ - في هذا المجال، يحثّ المجمع طلبة المدرسة المارونيّة في روما وخرّيجيها ومعلّمي المدارس (وهم في غالبيّتهم من خرّيجي المدرسة المارونيّة) على التأليف والكتابة والترجمة في مختلف المجالات، وذلك بأن يؤلّفوا في العربيّة الكتب المدرسيّة مقتطفة من مؤلّفين معروفين بالفضل، وإمّا أن يترجموها من اللغة اللاتينيّة إلى العربيّة على الأقل. «ثمّ فليعنوا بترجمة ونشر تآليف الآباء القدّيسين وأعمال المجامع وقوانينها وتاريخ الكنيسة وغيرها من المصنّفات الحريّة بالمطالعة والتي لا توجد عند الشرقيّين لا في السريانيّة ولا في العربيّة». وبما أنّ الطباعة لم تكن بعد مزدهرة في ذلك الحين فإنّ المجمع «يأمر الرهبان بأن يُعيّنوا في كلّ دير نسّاخًا مُجيدين حاذقين في صناعة الخطّ والكتابة» للحفاظ على التراث الكنسيّ بمختلف وجوهه، وإعداد الكتب المدرسيّة بوفرة لسدّ حاجة المدارس الناشئة. واللافت دعوة المجمع طلبةَ المدرسة المارونيّة إلى نقل الكتب من اللغات الأجنبيّة إلى العربيّة أو تأليفها في إطار رغبة مرفوعة إلى السلطات الكنسيّة الرومانيّة بشأن ضرورة عودة خرّيجي المدرسة إلى الوطن وعدم السماح لهم بدخول الرهبانيّات اللاتينيّة أو بالإقامة في روما أو غيرها (قانون ٤٧).

و - يشدّد المجمع على تعلّم اللغتين السريانيّة والعربيّة، لكنّه يأمر رؤساء معلّمي المدارس في المدن والقرى والأديار الكبيرة «أن يعنوا بتدريس اللغة العربيّة التي أحكم وضعها الطيّب الذكر جبرائيل فرحات». وهو

يشجّع بالتالي على نسخها أو طبعها في حين ينهى عن استخدام الكتب الأخرى التي يقول فيها المجمع بأنّها «تآليف الكفرة والهراطقة». وهذا معناه أنّ اللغة العربيّة كانت قد دخلت الحيّز المارونيّ، لكن تعلّمها كان له شروطه بحيث إنّ المصدر يجب أن يكون مارونيًّا.

ز - إنّ الأب بطرس فروماج اليسوعيّ، وقد وجب عليه أن يلقي كلمة افتتاح المجمع اللبنانيّ، كان الرائد في مجال تأليف الكتب وترجمتها. وربّما اضطلع بدورٍ أثناء جلسات المجمع لكي تقوم الكنيسة بواجبها في مجال نشر الكتاب، الوسيلة الثقافيّة الأساسيّة. والجدير بالذكر هنا أنّ فروماج الذي عمل طباعيًّا، وفي حقل الترجمة، مع عبدالله زاخر الملكيّ الكاثوليكيّ؛ عمل أدبيًّا، وأيضًا في حقل الترجمة، مع جرمانوس فرحات، فوضعا معًا عدّة كتب روحيّة وتقويّة.

ح - إنّ انعقاد المجمع اللبنانيّ جاء متوافقًا مع تزايد نتاج تلامذة روما وغيرهم من الموارنة في مختلف العلوم الدينيّة والتاريخيّة واللغويّة والروحيّة والأدبيّة. ومن اللافت أن يكون القاصد البابويّ، يوسف سمعان السمعانيّ، من كبار المؤلّفين والناشرين، صاحب «المكتبة الشرقيّة» التي طُبعت بين سنوات ١٧١٩ و١٧٢٨. ففي أثناء القرن الثامن عشر، لمعت أسماء عديدة في مجال تأليف الكتب ونشرها، نعرض هنا أهمّها:

- القسّ يوسف الباني (+ ١٧١٣) (روما).
- المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠-١٧٣٢).
- عبدالله قرألي.
- بطرس مبارك (يسوعيّ) (١٦٦٣-؟) (روما).
- جرجس بنيين (يسوعيّ) (١٦٧٢-١٧٤٣).
- يوسف سمعان السمعانيّ (١٦٨٧-١٧٦٨) (روما).
- إسطفانوس عوّاد السمعانيّ (+ ١٧٨٢) (روما).
- يوسف السمعانيّ (١٧١٠-١٧٨٢) (روما).
- ميخائيل الغزيزي.

- إسطفانوس بن ورد (١٦٩٩-١٧٤٥) (روما).
- أنطون القيالي.
- عيسى الجاماتي.
- يوحنّا البازنجاني.
- سمعان عوّاد الحصروني (البطريرك) (١٦٨٦-١٧٥٦) (روما).
- يوسف إسطفان (البطريرك) (١٧٢٩-١٧٩٣) (روما).
- إسطفانوس أخيل القبرصيّ (١٧٢٣-؟).
- تادى مالك سرور (١٧٠١-؟).
- جرجس سعد البجّاني.
- أنطونيوس بن مبارك (١٦٩٨-؟).
- يوصاف البسكنتاويّ (المطران) (١٦٩٠-١٧٦٩).
- بطرس بن عبدالله بن إسحق التولادى (١٦٥٨-١٧٤٦).
- عبدالله باسيل الشبابيّ (١٦٦٣-١٧٣٦).
- يوسف بن جرجس الحلبيّ (+ ١٧٢٥).
- إندراوس إسكندر القبرصيّ (١٦٨٧-١٧٤٨).

وجدير بالذكر أنّ جزءًا من هذه المؤلّفات نُشِرت مطبوعةً في روما والمدن الأوروبيّة، وبقي آخر مخطوطًا أو نُشِر عن طريق النسخ في جبل لبنان. ولا شكّ في أنّ مطبعة عبدالله زاخر قامت بدورٍ في نشر الكتب الدينيّة والطقسيّة الخاصّة بالطوائف الشرقيّة لا سيّما الموارنة، ونشرت سنة ١٧٨٨ كتاب المجمع اللبنانيّ في طبعة تختلف بعض الشيء عن تلك التي نُشِرت باللاتينيّة وصادق عليها الكرسيّ الرسوليّ.

ومن الواضح أيضًا أنّ النداء الذي أطلقه المجمع اللبنانيّ، مطالبًا بتأليف الكتب ونشرها، لقي بعض التجاوب والصدى عند الكثير من خرّيجي المدرسة المارونيّة وغيرهم، الذين عملوا على التأليف والترجمة. وبسبب غياب الطباعة عند الموارنة في جبل لبنان، فإنّ الكتب التي وضعها بعض المؤلّفين المحلّيّين أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر بقيت تتداول مَنسوخة، الأمر الذي يفسّر ازدهار مهنة النسخ في هذه الحقبة.

ولقد بقيت روما مصدر الكتب الطقسيّة العاديّة الأساسيّ، في حين كانت الكتب الأخرى تُنسَخ في الأديرة ومراكز الأساقفة.

أمّا المجامع المارونيّة المحلّيّة التي انعقدت بعد سنة ١٧٣٦ (بقعاتا - ١٧٥٦، غوسطا - ١٧٦٨، ميفوق - ١٧٨٠، عين شقيق - ١٧٨٧، بكركي الأوّل - ١٧٩٠)، فإنّها لم تتطرّق إلى موضوع تأليف الكتاب أو نشره، مكتفية بالعودة إلى المجمع اللبنانيّ والتذكير بمقرّراته. ولا بدّ من انتظار محطّة جديدة في تاريخ الموارنة الثقافيّ، وهي نهاية المدرسة المارونيّة في روما (١٧٩٨) وتأسيس مدرسة جديدة في لبنان، هي عين ورقة، لكي يخطو تأليف الكتاب وبالأخصّ طباعته ونشره، خطوة جديدة مع مطلع القرن التاسع عشر، القرن الذهبيّ في مجال التأليف والطباعة والنشر في لبنان. فالتأليف، وكذلك الطباعة، انتقلا من روما إلى لبنان، بفعل النهضة الثقافيّة التي كان محورها الأساسيّ مدرسة عين ورقة والمدارس الأخرى المنشأة في مطلع القرن التاسع عشر. ولا شكّ في أنّ هذا القرن شهد أيضًا تراجعًا في حركة التأليف والنشر المارونيّة في العواصم الأوروبيّة، لكنّ الإرساليّات الأجنبيّة قامت بدورٍ مهمّ وأساسيّ في النهضة الطباعيّة وازدهار المدارس[١٣].

٤ - الكتاب: من مدرسة عين ورقة (١٧٨٩) إلى نهاية القرن التاسع عشر

إنّ تأسيس مدرسة عين ورقة وجعلها مركزًا أساسيًّا لتربية الإكليريكيّين وإعدادهم توافق مع تأسيس مطبعة قزحيّا في مطلع القرن التاسع عشر على يد الأخ سيرافيم حوقا الشوشانيّ البيروتيّ سنة ١٨٠٨. وقد كانت حروف هذه المطبعة سريانيّة عني بصبّها الأخ حوقا ولم تكن فيها حروف عربيّة، رغم أنّ الأخ المذكور كان يريد اقتناءها لطبع كتب بأحرف عربيّة. والواضح أنّ هذه المطبعة أخذت على عاتقها طبع الكتب

(١٣) B. Aggoula, *op.cit.*, p. 310.

الطقسيّة والمختلفة (الشحيم بالكامل، القدّاس الإلهيّ بالسريانيّ والكرشونيّ ترجمة المطران جرمانوس فرحات، كتاب صلوات نهاريّة وليليّة، كتاب الرسائل عرّبه جرمانوس فرحات، كتاب ريش قريان، التعليم المسيحيّ، شرح معاني القدّاس، تساعية مار أنطونيوس، مبادئ القراءة السريانيّة، مورد التحقيق في أصول الفراماطيق، فرائض المجامع الرهبانيّة اللبنانيّة...).

إستمرّت مطبعة قزحيّا في العمل حتّى سنة ١٨٩٧، عاملة على طبع الكتب البيعيّة والدينيّة والروحيّة، على الأخصّ تلك التي كانت تُطبع في روما، كـ القدّاس الإلهيّ والشحيمة وغيرها، بالإضافة إلى بعض الكتب الروحيّة الخاصّة بالحياة الرهبانيّة. فمطبعة قزحيّا الجديدة تابعت، بعد ٢٠٠ سنة تقريبًا، ما كان على مطبعة قزحيّا القديمة أن تقوم به في حقل طباعة الكتاب ونشره. زد على ذلك أنّ مهمّتها انحصرت في التقليد تقريبًا، أي إنّها أمّنت تزويد الكنائس والمدارس المارونيّة كتبًا كانت تُطبع سابقًا في روما. وإلى جانب هذه المطبعة، أنشأت الرهبانيّة اللبنانيّة مطبعة أخرى في طاميش سنة ١٨٥٥، وجهّزتها بالأحرف السريانيّة والعربيّة، وقد اشتهرت بطبع الكتب المدرسيّة ومنها القواعد العربيّة وغيرها. وفي هذه المرحلة أيضًا، أنشئت المطبعة المارونيّة في حلب سنة ١٨٥٧ على يد المطران يوسف مطر، فقامت بطباعة الكتب الكثيرة بالحرف العربيّ في مختلف الحقول، كالكتب الطقسيّة والروحيّة والمدرسيّة (مبادئ القراءة العربيّة والتركيّة) وكتب أدبيّة وشعريّة (منها ديوان المطران فرنسيس الشماليّ أسقف حلب، وديوان ابن الفارض، وبعض الكتب النظريّة والفلسفيّة)[١٤].

واللافت أيضًا، أنّ التقدّم الذي حصل في مجال إنشاء المدارس وبالأخصّ تلك التي كانت تعنى بإعداد الإكليريكيّين (عين ورقة - ١٧٨٩،

---

(١٤) راجع: «تاريخ فنّ الطباعة في المشرق»، لويس شيخو، مجلّة المشرق، المجلّد رقم ٣، ص ٣٥٨-٣٥٩.

مار يوحنّا مارون في كفرحي - ١٨١٣، مار جرجس في رومية المتن - ١٨١٨، مار عبدا هرهريا - ١٨٣٣، عين سعادة - ١٨٦٣...)، إلى جانب المدارس التي تديرها الإرساليّات وهي عديدة، ومدارس الأديار والأبرشيّات (مدارس الحكمة، قرنة شهوان، غزير، المحبّة - عرمون، الكرّيم) حيث كان يتابع الكثير من الموارنة تحصيلهم العلميّ، ترافق مع إنشاء عددٍ من المطابع على يد الموارنة: مطبعة دير القمر، صاحبها حنّا أبي صعب من البترون، المطبعة الوطنيّة أسّسها جرجس شاهين وحنّا الغرزوزيّ سنة ١٨٥٥، المطبعة الشرقيّة التي أسّسها إبراهيم النجّار سنة ١٨٥٨ وقد امتلكت قسمًا منها مطرانيّة بيروت المارونيّة إثر وفاة المؤسّس، مطبعة إهدن أسّسها رومانوس يمّين والمطران يوسف الدبس، تلميذ عين ورقة سنة ١٨٥٩، المطبعة العموميّة والمطبعة الكاثوليكيّة العامّة أسّسهما يوسف الشلفون، كما أنّ الشلفون نفسه كان مديرًا للمطبعة اللبنانيّة التي أسّسها داود باشا، ومطبعة الأرز في جونيه سنة ١٨٩٥.

ومن بين الذين قاموا بالدور المهمّ في تأسيس المطابع ونشر الكتب، لا بدّ من الإشارة حكمًا إلى يوسف الشلفون، صاحب المطبعة العموميّة، وناشر الصحف: الزهرة سنة ١٨٧٠، النحلة مع القسّ لويس صابونجي، النجاح سنة ١٨٧٠ وهي أوّل جريدة يوميّة في «بلاد الشام»، والتقدّم وقد كانت منبرًا للعديد من الأدباء والمؤلّفين. أمّا الكتب التي طُبعت في مطابع الشلفون (أي المطبعة العموميّة، والكلّيّة، والعموميّة الكاثوليكيّة والمصباح - وهي كلّها مطبعة واحدة حملت هذه الأسماء) فهي كثيرة. إذ إنّ مطبعته أنتجت نحو ٣٠٠ كتاب في مختلف الحقول الطقسيّة والمواعظ والتفاسير والكتب الفلسفيّة والنظريّة والجدليّة والمدرسيّة والأدبيّة والشعريّة والتاريخيّة والعلميّة والفقهيّة.

والواضح أنّ مطبعة الأديب يوسف الشلفون كانت وسيلة ثقافيّة ودينيّة من الطراز الأوّل، أفاد منها الكثير من الأدباء ورجال الدين، نذكر منهم: القسّ يوسف الشابيّ (خرّيج عين ورقة)، يوسف الحلبيّ، المطران يوسف إلياس الدبس (وقد نُشرت مؤلّفات عديدة له في هذه المطبعة)،

الخوري بطرس الخوري، المطران بولس مسعد (تلميذ عين ورقة)، المعلّم إسكندر زياده، المعلّم بولس زوين، القسّ أنطونيوس الفغالي، الخوري نعمة الله كرم، الخوري بولس الزغبي، الخوري بولس عوّاد، الدكتور شاكر الخوري، المعلّم سعيد الشرتوني. ويبدو أنّ مطبعة الشلفون كانت المطبعة الأولى التي اهتمّت، إلى جانب المطبعة الأميركيّة والمطبعة الكاثوليكيّة، بنشر الكتب غير الدينيّة كالمؤلّفات التاريخيّة والعلميّة والحسابيّة والأدبيّة وغيرها، وقد يعود هذا إلى كون صاحبها علمانيًّا[١٥].

ومن الموارنة الذين أُتيح لهم المجال في المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين لنشر مؤلّفاتهم وترجماتهم الدينيّة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٢)، نذكر: المعلّم جرجس زوين، المطران بطرس كرم، الأب سليمان غانم، الخوري يوحنّا رزق، الخوري أنطوان آصاف، المعلّم سعيد الشرتوني، المعلّم جرمانوس فرحات، المعلّم رشيد الشرتوني، القسّ أفرام الديراني، الخوري يوسف البستاني. ونشرت المطبعة الكاثوليكيّة نحو عشرة كتب دينيّة مارونيّة، منها: منارة الأقداس وتاريخ الطائفة المارونيّة للدويهي وكتاب الفرض اليوميّ. أمّا الذين نشرت لهم المطبعة الكاثوليكيّة في مختلف العلوم غير الدينيّة منهم: جرمانوس فرحات، سعيد الشرتوني، جبرائيل إدّه (يسوعيّ)، المعلّم يوسف حرفوش، رشيد الشرتوني، المعلّم نجيب حبيقة، القسّ أفرام الديراني، المعلّم جرجس زوين، الأب جرجس فرج صفير. وقد اهتمّت المطبعة الكاثوليكيّة، بناءً على توصيات المجمع اللبنانيّ، بنشر العديد من الكتب التي تعنى بتعليم اللغة السريانيّة والتي ألّفها موارنة: كالمعلّم منصور الحكيم، القسّ جرجس الرزّي، القسّ جبرائيل قرداحي وأرسانيوس الفاخوري. وغالبيّة هؤلاء خرّيجو مدرسة عين ورقة وغيرها من المدارس المارونيّة.

---

(١٥) راجع: «تاريخ فنّ الطباعة في الشرق»، لويس شيخو، مجلّة المشرق، المجلّد رقم٣، ص ١٠٠١ - ١٠٠٣.

هذه الأسماء وغيرها تشير إلى إسهامات الموارنة في النهضة الثقافيّة أثناء القرن التاسع عشر في لبنان وأيضًا في المشرق العربيّ، إن أخذنا بعين الاعتبار دورهم في مصر وسوريا والآستانة. مع ذلك لا بدّ من الإشارة إلى أنّ المطابع الرئيسيّة الثلاث وهي: المطبعة الكاثوليكيّة، والمطبعة الأميركيّة، والمطبعة الأدبيّة (خليل سركيس) لم تكن في يد الموارنة، رغم أنّ أبوابها كانت مفتوحة أمام العديد منهم - أو الذين انتقلوا إلى طوائف أخرى مثل بطرس البستاني - لنشر مؤلّفاتهم. فمع مطلع القرن العشرين لم تكن لدى الموارنة الوسيلة - المؤسّسة في مجال الطباعة والنشر، التي تستطيع توجيه المؤلّفين والكتّاب وحثّهم على الإنتاج والإبداع. وتجدر الإشارة إلى أنّ آخرين اختاروا طريق الهجرة، كالكونت رشيد الدحداح وغيره.

٥ - الكتاب والموارنة في القرن العشرين

إتّسم النصف الأوّل من القرن العشرين بتطوّر كبير طرأ على الطباعة في لبنان، بحيث أصبحت هذه الصناعة ركيزة أساسيّة من ركائز النهضة الصناعيّة. وإنّنا نعرض هنا أهمّ المراحل التي قطعتها الطباعة ودور الموارنة فيها وفي تأليف الكتاب ونشره:

١٩٠٠-١٩٠٨:

توفّي المطران يوسف الدبس سنة ١٩٠٧، فتوقّفت المطبعة الكاثوليكيّة العموميّة عن العمل ولم تبقَ في الساح إلّا المطابع الكبرى. ونشأت مطابع أخرى على يد بعض المسلمين في بيروت وطرابلس وقد برز منها مطبعة المعارف لصاحبها الشيخ أحمد طبّاره منذ ١٩٠٥، والتي أخذت تطبع كتب المدارس الإسلاميّة المدرسيّة منها والدينيّة. في هذه الفترة، تعدّدت الصحف والمجلّات وإلى جانبها العديد من المطابع التي أخذت على عاتقها صدور هذا التاج (النصير لنعوم أبي راشد...).

١٩٠٨-١٩١٤:

سنة ١٩٠٨، كانت سنة الثورة في تركيا، وهي حركة تركت بعض

الأثر الإيجابيّ في الفكر والإنتاج الأدبيّ وبالتالي في الإنتاج الطباعيّ. فمن سنة ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ أُنشِئَ في بيروت حوالى الـ ٥٠ صحيفة و٢٦ مجلّة، وأخذ عدد المدارس في الازدياد، وهذا ما دفع ببعضهم إلى تأسيس المزيد من المطابع التي كان القليل منها على يد الموارنة (الراوي لطانيوس عبدو، الحسناء لجرجي باز، النهضة للويس دريان، في وقت أنشأ فيه جرجي حرفوش مطبعة الكلمة في الآستانة). من أسماء الأدباء والكتّاب الموارنة الذين عُرفوا في هذه الفترة: الأب يوسف الجميّاوي، القسّ بولس عبّود، رشيد الشرتوني (ناشر بعض مؤلّفات البطريرك الدويهي)، بولس البستانيّ، المطران بطرس شبلي، الأب يوسف غبريل، الأب طوبيّا عطالله (وقد أنشأ مطبعة في أنطلياس سنة ١٩٠٨ لنشر جريدة الحقّ)، بطرس ويوسف حبيقه، فرنسيس الشماليّ، الخوري إسطفانوس ضو. وفي بعبدا، أنشأ الأب يوسف الشدياق المطبعة الأنطونيّة لطباعة مجلّته كوكب البرّيّة.

١٩١٨-١٩٣٠:

بعد الحرب العالميّة الأولى التي جمّدت عمل المطابع وحركة الفكر والتأليف، عادت عجلة الحياة إلى المطابع. فجهّزت المطبعة الكاثوليكيّة والمطبعة الأميركيّة نفسيهما للعمل، وكذلك بعضها الآخر ومنها: مطبعة التوفيق (المارونيّة) ومطبعة الفوائد (لخليل البدوي) والمطبعة العلميّة (ليوسف صادر) والاجتهاد (ليوسف أبي عكر) التي نشرت اللاهوت العقائديّ لإلياس الجميّل في ثلاثة أجزاء، في حين وضع العديد من المطابع الصغيرة حدًّا لنشاطه.

ولا شكّ في أنّ الموارنة قاموا بدورٍ مهمّ إثر الحرب، في إعادة تنشيط الطباعة في لبنان، استجابة للازدهار الصناعيّ من ناحية ولتطوّر الحركة الثقافيّة من ناحية أخرى. فتأسّست عدّة مطابع في بيروت وضواحيها، نذكر منها مطبعة الورقاء في صليما، والعلم في بكفيّا (وكانت تطبع المجلّة السوريّة)، والشمس في الدامور. وفي هذه الفترة أراد

الرهبان الموارنة البلديّون إعادة النشاط إلى تقليدهم الطباعيّ فأسّسوا مطبعة الرهبان الموارنة في دير سيّدة المعونات (جبيل ١٩٢٥) وقد أنتجت الكثير من الكتب الدينيّة والطقسيّة والفلسفيّة.

أمّا المرسلون اللبنانيّون فقد أسّسوا مطبعة لهم في جونيه سنة ١٩٢٩، وهي المطبعة التي أُلحِقت بها دار للنشر، فأصبحت مؤسّسة كبرى لطباعة الكتب التاريخيّة والطقسيّة الخاصّة بالكنيسة المارونيّة ونشرها.

١٩٣٠-١٩٥٠:

من الممكن القول إنّ المطابع التجاريّة في مختلف القرى والمناطق، وخاصّة تلك التي تتّسم بكثافة سكّانيّة مسيحيّة أو مارونيّة، شهدت ازدهارًا ملحوظًا في هذه الفترة. لكنّ المطابع التي كان لديها دور نشر تهتمّ بنشر الكتاب على نفقتها، لم تكن كثيرة، منها طبعًا: المطبعة الكاثوليكيّة والمطبعة الأميركيّة وكذلك دار الكشّاف (لصاحبها مصطفى فتح الله)، ومطبعة صادر والريحاني، والأخيرة امتدّت بنشر كتب أمين الريحاني، والمطبعة البولسيّة ومطبعة المرسلين اللبنانيّين، ومطبعة دير المخلّص. إنّ هذه المطابع، ومنها مَن أوقف نشاطه كالمطبعة الأميركيّة ودار الكشّاف، أو خمدت همّته كمطبعة المرسلين اللبنانيّين، كانت في أساس حركة نشر الكتاب التي يشهدها لبنان اليوم. ولا شكّ في أنّ المطابع الصغيرة التي انتشرت خارج بيروت في المدن والقرى كانت ذا فائدة كبيرة، كونها سمحت للعديد من المؤلّفين (وبينهم جماعة من الموارنة) أن ينشروا كتبهم على نفقتهم الخاصّة. لكنّ عددًا لا يُستهان به من أدباء الموارنة ارتبطت أسماؤهم بالمطبعة الكاثوليكيّة أو المطبعة الأميركيّة ودور النشر الأخرى كونها حلّت مكان المؤلّفين في نشر كتاباتهم، كما أنّ جماعةً من الأدباء الموارنة نشرت خارج لبنان.

دور الموارنة اليوم في نشر الكتاب[١٦]

مع بداية الستّينات، أخذ نشر الكتاب يتحوّل إلى مهنة قائمة بذاتها،

---

(١٦) غالبيّة هذه المعلومات مستقاة من: J. Nasrallah, *l'Imprimerie au Liban*, 1949

وأخذ يستقلّ عن المطبعة كأداة والطباعة كفنّ. وأصبح عدد المطابع (من مختلف الأحجام) التي يملكها الموارنة في بلادهم غير قليل (حوالى ٢٠٠ مطبعة). لكنّ هذه المطابع في غالبيّتها تجاريّة، تقوم بطبع الكتب والكراريس والمنشورات لمَن يطلب ذلك. لكنّ دور النشر المارونيّة التي تعتني بنشر الكتاب على نفقتها الخاصّة، وتقوم أيضًا بتوجيه النشر وتنظيمه وإعداد المؤلّفات، هي بالفعل قليلة إذا ما تمّ قياسها بعدد دور النشر العاملة حاليًا في لبنان والتي يفوق عددها الألف. فدور النشر التي يملكها الموارنة والتي تعنى بالكتاب الدينيّ والعلميّ عامّة هي التالية:

- دار الكتاب المفضّل.
- دار الكرمة.
- منشورات مطبعة المُرْسَلين اللبنانيّين.
- منشورات جامعة الكسليك.
- منشورات الحكمة.
- منشورات الرابطة الكهنوتيّة.

إنّ إنتاج هذه المؤسّسات لا يكوّن إلّا نسبة محدودة من مجمل إنتاج الكتاب في لبنان، وهي تعدّ من المؤسّسات المتوسّطة الحجم. إذ إنّ في لبنان أكثر من خمسين دار نشر تنشر أو تعيد طبع أكثر من ٢٠ كتابًا في السنة الواحدة، في حين أنّ هذه الدور لا تنشر مجتمعة عشرين كتابًا في السنة الواحدة، كما أنّ دور نشر مسيحيّة أخرى تقوم بنشر عشرات الكتب سنويًا. هذا يكفي لإظهار وضعيّة النشر المارونيّ أثناء هذه الفترة من حياة الكنيسة المارونيّة. أمّا مؤسّسات النشر التي يمتلكها موارنة وتقوم بنشر مختلف الكتب من دون أن يكون ذلك مرتبطًا بهويّة مارونيّة، فهي التالية: دار الدائرة (مؤلّفات فؤاد أفرام البستاني)، مؤسّسة نوفل، المكتبة الشرقيّة، دار مارون عبّود، دار الجيل (كتب مختلفة وخاصّة أدبيّة وإسلاميّة)، دار لحد خاطر (التراث اللبنانيّ والمارونيّ)، الندوة اللبنانيّة، دار صادر (كتب قانونيّة وجامعيّة)، دار الريحاني (قليلًا من الكتب الأدبيّة)؛ زد على ذلك أنّ العديد يقومون بنشر كتبهم على نفقتهم الخاصّة

لسبب أو لآخر، ومنهم العلمانيّ والإكليريكيّ (المونسنيور بطرس الجميّل، الأباتي بطرس فهد...).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ جهدًا يقوم على الأفراد (الشرتوني، بطرس فهد، بطرس الجميّل، مبارك) قد بُذِل منذ بداية هذا القرن وخاصّة في أيّامنا الحاضرة لنشر بعض صفحات من تاريخ الموارنة وتراثهم. لكنّ هذا الجهد يبقى غير كاف للوصول إلى مكتبة متكاملة شاملة.

خلاصة عامّة

لا بدّ من التوقّف في بداية هذه الخلاصة على دعوة المجمع اللبنانيّ منذ قرنين ونصف القرن إلى تعزيز الكنيسة المارونيّة وإرساء نهضتها بشكل متين على قواعد ثابتة، منها التأليف والنسخ والنشر. وإيفاء الكتاب كوسيلة ثقافيّة - حضاريّة لها دورها في توجيه القوى والجهود مزيدًا من الاهتمام والعناية، وتعزيز دور الفكر والبحث والترجمة والتأليف والاستيعاب، ونشر نصوص الأصالة والتراث.

إنّ دعوة المجمع اللبنانيّ هي دعوة لتحمّل المسؤوليّات باسم المسيحيّين في الشرق، لا بل لتحمّل مسؤوليّة نهضة الشرق وبلاد العرب ثقافيًا وإنسانيًا. فكيف نستطيع اليوم تلقّي دعوة المجمع اللبنانيّ مرّة ثانية، وما هي المجالات المتبقّية للعمل من أجل النهوض الروحيّ والفكريّ؟

١ - لا بدّ أوّلًا من التوقّف على وضعيّة النشر وذلك في سبيل نهضة مارونيّة متكاملة: فنحن بحاجة اليوم إلى تنظيم هذا العمل عبر خطّة واضحة تحدّد المجالات التي من الواجب تشجيع النشر فيها. فإذا كان النامخ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر هو الطريق إلى الكتاب، فالطريق اليوم هي تنظيم النشر وتوجيهه وتسويله قبل أيّ شيء آخر.

٢ - هناك مسؤوليّة مارونيّة، كون الكنيسة المارونيّة كنيسة سريانيّة تنتسب روحيًا ولاهوتيًا وطقسيًا إلى التراث السريانيّ والتقاليد السريانيّة. هناك

مسؤوليّة مارونيّة تجاه نشر التراث السريانيّ بنصّه السريانيّ ومنقولًا إلى العربيّة للإفادة منه. لا بدّ من نشر هذا التراث كاملًا، - خاصّة وأنّ الكنائس السريانيّة الأخرى في وضع لا يسمح لها بالعمل - بالتعاون مع الكنائس الأخرى، ضمن «مكتبة سريانيّة» تحوي مؤلّفات الآباء السريان والتقليد السريانيّ.

٣ - هناك مسؤوليّة مارونيّة تجاه التراث المارونيّ (باللغة السريانيّة واللغة العربيّة)، فيتمّ نشره في «مكتبة مارونيّة» تضمّ: أ - كتابات كبار المؤلّفين الموارنة اللاهوتيّة والروحيّة. ب - النصوص الطقسيّة القديمة بمختلف مشاربها وعناوينها للإفادة منه. ج - نصوص القراءات المجمعيّة المارونيّة ورسائل البطاركة والمطارنة. فهل يعقل ألّا تتوفّر اليوم مؤلّفات البطريرك الدويهي وسائر الأدباء الموارنة من خرّيجي مدرسة روما وغيرهم في نشرات علميّة، وألّا تتمّ دراستها؟

٤ - هناك مسؤوليّة مارونيّة تجاه نهضة روحيّة - طقسيّة طريقها نشر الكثير من الكتب في مختلف المجالات وخاصّة ما يختصّ بالكتاب المقدّس ونصوص التراث الروحيّ السريانيّ والتراث الغربيّ. ولا شكّ في أنّ تنظيم نشر التراث السريانيّ والمارونيّ الطقسيّ واللاهوتيّ والأدبيّ... لا بدّ من أن يكون مبنيًّا على قاعدة روحيّة مبدأها روح التضامن مع الكنيسة ومع رسالة الكنيسة في نشر السلام والدعوة إليه.

٥ - هناك مسؤوليّة مارونيّة تحاه إبداع لاهوتيّ - روحيّ اليوم بلغة عربيّة متينة، انطلاقًا من نصوص التراث ومن الواقع الذي نحياه ومن التزامنا بهذا الواقع الإنسانيّ الجغرافيّ. إذ إنّ حدود جبل لبنان، كما يعلّمنا الدويهي وغيره، هي أبعد من جبل لبنان لأنّ المنطلق هو الروح قبل الحرف. وهذه المسؤوليّة تعني تشجيع الإكليريكيّين والعلمانيّين على حدّ سواء على التفكير بلغة عربيّة، والكتابة بلغة عربيّة. ولكنّنا ما زلنا اليوم بحاجة إلى تعلّم اللغة السريانيّة وهذا ما يمكّننا من البقاء قريبًا من مصادرنا السريانيّة. فدعوة المجمع اللبنانيّ لا تزال هي هي اليوم.

٦ - ثمّة مسؤوليّة مارونيّة ذات طابع راعويّ، وهي تشجيع إقامة المكتبات

الثقافيّة والدينيّة في الرعايا والمدارس، الأمر الذي دعا إليه المجمع اللبنانيّ منذ ٢٥٠ سنة وما يزال من متطلّبات زمننا الحاضر. فالطريق إلى الثقافة واستيعاب الحداثة لا يكون بالتعلّق بالمظاهر الخارجيّة وبالعادات الشكليّة، بل بالتفكير كيف نحيا أسس الحداثة من خلال وضعنا الحاضر. ولا شكّ في أنّ تعزيز المكتبات والدعوة إلى المطالعة والاستزادة هما ركيزة هذا التفكير والتغيير المرتجى.

٧- ثمّة مسؤوليّة مارونيّة تجاه لبنان المستقبل، المتحرّر من العنف والكبت والحرمان. فكيف نريد لبنان بلد الأجيال الطالعة؟ على الكنيسة المارونيّة أن تعود إلى ذاتها وإلى تراثها، لاهوتيًّا وروحيًّا وطقسيًّا وثقافيًّا، وعليها أن تنشر ثقافتها لكي تستطيع المشاركة في وضع أسس لبنان المستقبل. لا شكّ في أنّ الكثير من هذه المعطيات هو مغيَّب، وأبناء الكنيسة يجهلونه ولا يتحسَّسونه. فبناء المستقبل مع الآخر يفرض علينا أن نتعرّف إلى هذا التراث، أن ننشره ونجعله حاضرًا فينا وبيننا.